الكولونيالية وخطاب التحرر في فلسفة فرانز فانون

"فانون وتثقيف الثورة الجزائرية"

(ب) طهيري عماد الدين/ جامعة أبي بكر بلقايد .تلمسان

tahiri.augrout@gmail.com

1–ملخص باللغة العربية:

فرانز فانون هو واحد من بين نخبة من المثقفين الفرنسيين ،الذين أيّدوا الثورة الجزائرية وناصروا قضيت شعبها ضد المستعمِر ،على غرار فرانسيس جونسون وجان بول سارتر. إلا أن فانون تميّز عنهم عندما لفت الأنظار بسيرته النضالية من أجل الغير والكرامة الإنسانية ،بنبذ العنصرية وأشكال الاستعباد ،ومناهضة الآخرين ،وذلك بتأصيل فلسفة التحرر والكفاح ،التي ألهمت فئة المسحوقين والمغصوبين وحفّزتهم على الثوران .إذ لم يكتفي بالتنظير للفعل التحرري داخل مكتبه ،بل سعى الى تحقيقه وتفعيله على أرض الواقع ،عندما اندمج مع الشعب الجزائري ،وانخرط مباشرة في صفوف الثورة ضد بلده السابق فرنسا.أما كتاباته ،وتجربته ضد الكولونيالية وضد الاستغلال ،كانت ولازالت محلّ اهتمام العديد من الباحثين الأكاديميين والمثقفين ،على اختلاف اهتماماتهم ،سواء كانت سياسية ،أو اجتماعية ،أو ثقافية فلسفية .وفي الأخير لحرج من القول ،بأن هذه الفلسفة التحررية لم يكن ليُكتب لها الخلود والانتشار في العالم أجمع ،لو لم تطأ قدما فانون أرض الجزائر.

2–ملخص باللغة الإنجليزية:

Franz Fanon is one of the elite French intellectuals who supported the Algerian revolution and supported its people against the colonizer, like Francis Johnson and Jean-Paul Sartre. However, Fanon distinguished them when he drew attention to his struggle for others and human dignity, to renounce racism and forms of slavery, and to fight against others by entrenching the philosophy of liberation and struggle, which inspired the class of the oppressed and the oppressed and motivated them to revolt. To his realization and activation on the ground, when merged with the Algerian people, and engaged directly in the ranks of the revolution against his former France. His writings, and his experience against colonialism and against exploitation, was still the

focus of many academic researchers and intellectuals, M, whether political or social, cultural or philosophical. In the latter embarrassed to say, that this liberal philosophy was not to write her immortality and spread throughout the world, if not set foot in the land of Algeria Fanon.

3–كلمات مفتاحية:

الكولونيالية .الثورة .الحرية .الكرامة .الثقافة

إن عقلية السيطرة والهيمنة التي فرضتها الكولونيالية الغربية على بلدان الشعوب الضعيفة التي مزقتها الحروب والصراعات عبر التاريخ ،هي نقطة سوداء ومظلمة في ذاكرة الوجود الإنساني الحديث ،حيث مورست كل أنواع القهر والتدمير والاستغلال ،فجاءت هذه الفلسفة الاستعماريّة بطابعها العنيف والهمجي لتقوم أولاً على غزو أرض مستعمَرها ،بحجة نقله من حالة التخلّف والانحطاط الى مرحلة الحداثة والتقدّم ،ولتقوم ثانيةّ على محو هويته ،بتدنيس معتقده ،وتغريب ثقافته ،واستلاب شخصيته ومقوماتها .مثالٌ على ذلك ، الوجود الكولونيالي الفرنسي بالجزائر الذي طبّق هذه السياسة ،وتفنّن في عمليات القتل والترهيب والتهجير والاستعباد ،لكن هذا الوجود الكولونيالي الفرنسي بالجزائر طوال 132 سنة ،واجه العديد من الثورات والمقاومات الشعبية المتفرقة عبر كامل ترابها ،الى غاية الفاتح من نوفمبر 1954 ،هذا التاريخ الذي أعلن شعبها فيه ثورة وطنية شاملة ضد الاستعمار الفرنسي ،من أجل حريته وسيادته ،حيث حظيت هذه الثورة المسلحة بمباركة كل انسان منّدد بالظلم ومناهضة الاخرين ،فالضمير الانساني كان دائماً طرفاً فاعلاً في مثل هكذا صراع ،عندما ينحاز الى صف المستضعف ،والمحروم من حريته ،ومن حقه في العيش الكريم .لذلك يسجل التاريخ مواقف العديد من المفكرين والفلاسفة والنخبة المثقفة الذين وقفوا بجانب الشعب الجزائري وساندوه في كفاحه ونضاله ضد الاستعمار الفرنسي .

حتى المثقفين الفرنسيين منهم من أيّد الثورة وحقّ الجزائريين في الحرية والاستقلال ،ووقف ضد سياسة بلده الاستعمارية، خصوصاً الفئة المنتمية لليسار السياسي التي التزمت بمبادئها الانسانية وبحق الغير في الفعل ،والارادة والاختيار ،ومن أشهر هؤلاء النخبة وأثقلهم مكانة في الساحة الفكرية العالمية ،نجد ،جان بول سارتر ،وفرانسيس جونسون ،وفرانز فانون .هذا الأخير هو موضوع هذه الورقة التي سأحاول تسليط الضوء فيها على قليل من سيرته النضالية مع الشعب الجزائري ،وعرض لأهم ركائز فلسفته التحررية في مؤلفاته الأساسية ،وكذا تبيان مدى تأثير الثورة الجزائرية على بلورة وعيه السياسي ونحت فكره النضالي الثائر .مستعيناً في ذلك بما كتبه زميله ورفيقه محمد الميلي* عنه .

* محمد ابراهيم الميلي من مواليد 11 نوفمبر 1929 بمدينة الأغواط ،مناضل ،عمل في هيئة تحرير صحيفة المجاهد لسان حال جبهة التحرير الوطني.،من مؤلفاته ،ذكريات زمن البراءة ،فرانز فانون والثورة الجزائرية.

ولد فرانز فانون يوم عشرين جويلية 1925 في مدينة فوردي فرانس عاصمة جزر المارتينيك إحدى المستعمرات الفرنسية القديمة ،في عائلة ذات أصول افريقية تؤمن بفرنسيتها ،مندمجة في ثقافة مستعمرها .تدرج فانون في تعليمه واكتسب ثقافة تعتبر انعكاساً لجو معيشي يغيب فيه الشعور بالقومية و الانتماء للأصل الزنجي ،في مجتمع راضخ للأمر الواقع ولإملاءات التاريخ الكولونيالي . عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ،انضم فانون كغيره من الشباب وتطوع بالجيش الفرنسي تحت دافع الوطنية ،وعقيدة الكرامة الانسانية التي كان يعتنقها ،بعد انتهاء الحرب وانتصار فرنسا ،عاد فانون ليكمل تعليمه الثانوي ليلتحق بكلية الطب بليون ،وفي هذه الفترة أي وجوده بليون للدراسة ،بدأت أولى أفكاره التحررية بالتشكل ووعيه بالنمو ،عندما عايش التمييز بينه كفرنسي ذو بشرة سوداء ، وبين الفرنسي الاوروبي وحقيقة اللامساواة بينهما في مجنمع يحتقره لإختلاف اللون لا غير. ويضعه في مرتبة مواطن من الدرجة الثانية.

قبيل تخرجه من الجامعة كطبيب نفسي ،درس فانون الفلسفة ونال شهادة الإجازة فيها ،في تلك الأثناء كان قد تعرف على جان بول سارتر وفرانسيس جونسون ،وغيرهم من المثقفين البارزين ،لينضم الى الحزب اليساري الفرنسي ذو المرجعية الهيجيلية المعارض، ويعتنق مبادئهم ،ويقتدي بأفكارهم ونظرياتهم .

خلال سنة 1952 يصدر فانون كتابه الأول بعنوان (بشرة سوداء أقنعة بيضاء) ،الذي قدم له صديقه فرانسيس جونسون ،وبفضل هذا الكتاب اشتهر فانون في الأوساط اليسارية خاصةً، وفي الساحة الثقافية الفرنسية عامةً، إذ تميّز فيه بأسلوبه البليغ والقوي وبتفاعله وحماسته مع ما يكتب، مظهراً ومصوراً موقفه بكل جرأة ووضوح وحزم، بطابع شفاف ،موصلاً به المعنى مقرباً للفهم من دون تكلف في اللفظ ولا تصنّع [1]، فمؤلف (بشرة سوداء أقنعة بيضاء) يجسد مواقف فانون في خضم تكوين فكره الأول ،إذ يظهر فيه بمظهر الناقم على التاريخ الزنجي الغير مؤمن بالماضي وما يحمله من مشاهد استغلال واستعباد لشعبه المارتينيكي ،بوصفهم عبيد ورق في يد الرجل الأوروبي الأبيض، ففانون كان متعطشاً للثورة ،ناقماً على الأوضاع السيئة والمخيبة لحلم العيش الكريم ،متميزاً بفكره التحرري والكفاحي .لكنه لم يجد في شعبه غايته هذه والشرارة للثورة التي يبحث عنها ،لأن تاريخ المارتينيكي في نظر فانون هو تاريخ رق وتهجير، وليس تاريخ كفاح من أجل الحرية والكرامة ورد الاعتبار ،فليست هناك بذور لكفاح المارتينيكي من أجل تحرره من عبوديته بل إن (الزنجي تاريخياً حرره سيده)[2].

[1] محمد الميلي ،فرانز فانون والثورة الجزائرية ،سحب الطباعة الشعبية للجيش ،الجزائر ،2007 ،ص 25

[2] محمد الميلي ،فرانز فانون والثورة الجزائرية ،مصدر سابق ،ص39

لكن هذه النظرة السلبية للزنوجة لم تمنع فانون من أن يتمرد على القيم السائدة التي تجعل الزنجي انسان محتقر ،ذو مكانة اجتماعية وضيعة، لا لشيء، فقط للون بشرته المختلف ،هذا الموقف المتناقض جعل فانون يعيش "حيرة" كما سماها هو ،بين أن يكون أوروبياً أصيلاً وهذا غير ممكن ،وبين مواجهة تاريخ الشعب المارتينيكي الغير محفّز[3]

إن الكتاب الأول (بشرة سوداء أقنعة بيضاء) إجمالاً يحمل فلسفة زنجية تحاول التأسيس للقيم الأفريقية في معطاها الأنطولوجي ،ليس لاعتبارات تاريخية ،ولكن كتمرد ورفض لواقع حاضر مظلم في ظل الهيمنة الكولونيالية ،التي تتبنى قاعدة لا مساواة ولاحق، ولا كرامة لغير الأوروبي.

عين فانون سنة 1953 من طرف الإدارة الفرنسية كموظف سامي في مستشفى الأمراض العقلية بالبليدة، الذي تغير منذ وصوله اليه ،حيث اجتهد وحاول إبداع أساليب وطرق علاجية جديدة تتماشى مع بيئة ومحيط المرضى ،في هذه الفترة كان فانون قد وقف على طبيعة التعامل الغير عادل بين المرضى الأوروبيين والجزائريين ،هذا الشيء الذي أثار حفيظته ومبدأه الرافض للاستغلال ومناهضة الآخرين .خلال هذه المدة التي قضاها في المستشفى احتك بالثوار الجزائريين وتعرّف على الكثير من قادة جبهة التحرير وأعجب بنضالاتهم وتضحياتهم ،وأيّد قضيتهم ومدّ يد العون لهم سراً ،كيف لا وهو مثقف يؤمن بالأنسان وكرامته وسيادة الأوطان ،متشبع بفكر التحرر والنضال ،في سنة 1957 التحق فانون الشاب بالثورة الجزائرية رسمياً ،وأعلن نفسه واحداً من رجالاتها ،فأنتقل بذلك من التنظير لفلسفة التحرر والكفاح الى الممارسة الفعلية لها ،فهو لم يكتفي بأدوار تنظيمية أو شرفية بل تقلّد مهام عسكرية وتنفيذية الى جانب قريحته التي لم يتوقف قلمها عن السيلان ،وهذا عندما سافر الى تونس ليعمل كمحرر في صحيفة "المقاومة الجزائرية" ثم صحيفة "المجاهد"التي كانت هي الجريدة الرسمية الناطقة بلسان حال جبهة التحرير الوطني ،حيث عمل فيها جنباً الى جنب مع كل من رضا مالك ،بيار شولي ،محمد الميلي ،عبد الله شريط وغيرهم، حيث كتب فيها فانون عدة مقالات أهمها التي كان يكتبها ضد المثقفين الفرنسيين وحتى اليساريين منهم الذين تبنوا مواقف سلبية من الثورة الجزائرية بإستثناء سارتر وجونسون وقلة قليلة ،هؤلاء آمنوا بحرية الفرد في العيش وفق اختياره وارادته وبقدرته على التغيير والعطاء.

إن ما يأخذه فانون على اليسار الفرنسي ،أنهم لم يسلموا بحقيقة الوجود التاريخي للدولة الجزائرية وشرعيتها قبل سنة 1830 التي شهدت انهزام الجزائر ،فاليسار كان يعلم بأن الإذعان لمثل هكذا فكرة سيؤدي الى هدم أي شرعية للوجود الفرنسي في الجزائر ،خصوصاً وأن النظرية اليسارية لا تؤمن بالشخصية الوطنية ،فهي تعتبرها شخصية بصدد التكوين ،وبأن العامل الثقافي الأوروبي ساهم في تكوينها ودمجها ،واعتبر المعمّرين جزء لا يتجزأ من تركيبة الشعب الجزائري ،وأيضا ما يُأخذ على اليساريين موقفهم الرافض للعمليات الفدائية التي كانت تؤدي في

[3] المصدر نفسه ،ص60

نظرهم بحياة المدنيين الفرنسيين ،بل وطالبوا قيادات الجبهة بإدانتها [4]،وكذا ايمان اليسار بأن طريق التفاوض مع المستعمر سيؤدي الى حل يرضي الطرفين ،وهذا بالضبط ما كان الثوار يرفضونه خصوصاً وأنهم اتخذوا موقفاً راديكالياً لا يقبل انصاف الحلول ،سوى الاستقلال التام.

كل هذه المواقف وغيرها لليسار الفرنسي جعلت فانون يفض العلاقة بينه وبين فلسفتها ،ويعتنق كلياً قيم ومبادئ الثورة الجزائرية ،رغم أن فانون كان مثقفاً متميزاً برزانة الموقف ورجاحة الفكر وصلابة الرأي ،فإنه تراجع عن أفكاره وانتماءه لهذا اليسار .ذلك حتماً يدل على أن الثورة الجزائرية أثّرت بشكل مباشر في تفكير فانون وصقلة أكثر فلسفته التحررية ،بل منحته الفرصة لترويجها والتعريف بها في عمق القارة السمراء ليحتك بشعوبها ويعاين عن كثب مشاكلهم ومعاناتهم[5]، عندما عُيّن سنة 1960 سفيراً للجزائر ،ممثلاً لجبهة التحرير الوطني في العاصمة أكرا.

إن انخراط فانون بالثورة الجزائرية واحتكاكه المباشر بمنضاليها ،يشكّل منعرجاً فكرياً وجّهة نمط فلسفته وكتابته مما كانت عليه في عمله الأول (بشرة سوداء أقنعة بيضاء) ،بأن أصّلت أكثر موقفه من انتماءه العرقي والسياسي ،إذ ثار فيها قلمه بأكثر واقعية ،وصارت لغته أكثر ثقة ،لأنه وجد ذاته التي كانت ضائعة بين حلم المارتينيكي وانتهازية الفرنسي، أي بين فلسفة الزنوجة الباحثة عبثاً عن قيمها في الماضي لإثبات مكانتها ورد الاعتبار لما كان، وبين فلسفة التفوق والمركزية للرجل الأبيض ،التي نشأ وتكّون في خضمّها .

وعليه فإن هذا الاندماج الكلّي في الثورة وتأثير هاته الأخيرة على حياته ،يظهر جلياً في مؤلّفه الثاني (الثورة الجزائرية في عامها الخامس)، فهو يعرض وبالإضافة إلى تجربته كمناضل ثوري في صفوف جبهة التحرير ،يعرض فيه دراسة نفسية وأنثروبولوجيا للثقافة المميزة للشعب الجزائري من عادات وتقاليد وأساليب عيش ،من خلال انصهاره في الحياة اليومية وانسجامه مع ظروفها، ففي الفصل الأول من الكتاب يحاول تفكيك البنية الفكرية للكولونيالية ،بفضح مخططاتها التي تهدف الى اضعاف المجتمع الجزائري وتفتيت روابطه الاجتماعية وقيمه العرفية ،عندما يتعرّض بالشرح والتدقيق لدور المرأة الجزائرية في الحفاظ على الشخصية الوطنية ،ونيّة الاستعمار سلبها هويتها ودمجها في المجتمع الأوروبي[6]،فالاستعمار بواسطة الأبحاث السوسيولوجية التي أجراها رواد الطرح الكولونيالي ،أدرك بأن خلخلة القيم الثقافية والأخلاقية للمرأة ،وايهامها بتخلف ورجعية تقاليدها بنسخ ثقافة المرأة الغربية المتنوّرة ،المتحضّرة والمتحرّرة من كل قيود ، هي الخطوة الأهم في إذابة المقومات الوطنية والمكتسبات التاريخية لشخصية الرجل الجزائري ،وبالتالي السيطرة عليه بطمس عقيدته وهويته العربية والأمازيغية ،وذلك من أجل توضيع ثقافة الاندماج وسياسة التفريق والتنصير ،ففانون يضع هذه المحاولات الاستعمارية في نطاقها الصحيح "عندما يؤكّد بأن كل حجاب

[4] محمد الميلي ،فرانز فانون والثورة الجزائرية ،مصدر سابق ،ص97

[5] المصدر نفسه ،ص196

[6] فرانز فانون ،العام الخامس للثورة الجزائرية ،ترجمة :ذوقان قرقوط ،مراجعة :الأستاذ عبد القادر بوزيدة ،منشورات آنيب ،الجزائر ،دار الفارابي ،بيروت ،الطبعة الأولى ،2004 ،ص32

يسقط وكل جسم يتحرر من'الحايك' ،وكل وجه امرأة يتعرّض للأنظار ،يعبّر سلباً على أن الجزائر بدأت تتنكّر لنفسها وتقبل باغتصاب المحتل ،لأن المجتمع الجزائري حين يقبل ذلك يبدو كأنه يتعلّم في مدرسة السيّد ،وأنه قرّر تغيير عاداته تحت ادارة وتوجيه المحتل"[7].مع ذلك فدور النسوة في الحفاظ على الشخصية الوطنية اتضح أكثر خلال حرب التحرير عن طريق مختلف البطولات التي قامت بها المرأة ،جنباً الى جنب مع الرجل ،سواء كانت أمية أو متعلمة ،ساكنة المدينة أو بنت الريف ،فالهدف كان واحد يجمع الكل ،وهو التحرر من مستعمرهم، ونيل سيادتهم الوطنية.

إن هذه المقاومة اتخذت أيضاً أشكالاً أخرى ثقافية ومعنوية لمقارعة المد الكولونيالي ،كالتعليم المضاد للفرنكوفونية ،أو دور الزوايا الصوفية في مواجهة محاولات التنصير ،فهذا النوع من المقاومة يعكس حسب فانون وعي المجتمع الجزائري بخطر الاستعمار اللغوي والثقافي ،مما جعله يصب معظم أبحاثه على دراسة المجتمع الجزائري وعلاقته أولاً بالثورة وكيف تفاعل معها وانسجم في استراتيجيتها الكفاحية ،ثم تعرية حقيقة المستعمر ،وإثبات وحشيته وعدم شرعيته البتة ،وايضاً للتصدّي لنظريات علماء النفس العنصرية التي شوّهت الشخصية الجزائرية عندما اعتبرتها همجية ،كسولة ،ودموية .

يتناول فانون في كتابه (العام الخامس للثورة الجزائرية) أيضا دور جهاز الراديو في ايصال صوت الثورة لشعبها ونقل أحداثها وانتصاراتها واخبارها الى بيوتهم ،والتصدي للدعاية الاستعمارية التي كانت تشوه وتزيف الحقائق ،وتروج لإشاعات ضد الثورة ،وتحاول النيل من عزيمة الشعب واحباط معنوياتهم ،وهذا عندما أطلق رسمياً في شهر ديسمبر 1956 اذاعة 'صوت الجزائر الحرة' ،يقول فانون: "لم يعد جهاز الراديو جزءاً من ترسانة القمع الثقافي الذي يمارسه الاحتلال ،إن المجتمع الجزائري ،إذ يجعل من الراديو وسيلة فريدة للمقاومة في وجه الضغوط البسيكولوجيا والعسكرية المتزايدة ،يقرر بحركة مستقلة داخلياً ،تبني التكنيك الجديد ،فيكون بهذا مربوطاً بالطرق الجديدة في استخدام الإشارات، التي أبدعتها الثورة."[8]

يقف فانون إذاً على الدور الكبير لإذاعة "صوت الجزائر الحرة أو المكافحة" ،في دعم الثورة الجزائرية عبر دورها التعبوي والتجندي ،وأهميتها على مستوى تلاحم وتوجيه الجماهير ،كما أنه درس وحلّل الأثر البسيكولوجي، لهذه الإذاعة ، والتحولات النفسية الايجابية التي تركتها فيهم. أما بقية فصول الكتاب فقد تناول فانون فيها موضوع الأسرة وتركيبها وفكك علاقة أفرادها مع بعضهم البعض، وعرج على أهمية فئة الشباب في دفع عجلت الكفاح ،كما عرض فانون العلاقة الفاترة بين طبيب الاستعمار والمرضى الجزائريين ،وكيف كانت تلك

[7] محمد الميلي ،فرانز فانون والثورة الجزائرية ،مصدر سابق ،ص135

[8] فرانز فانون ،العام الخامس للثورة الجزائرية ،ص83

التعليمات الطبية تعد شكلاً من أشكال التعذيب النفسي. آخر فصل خصصه لمسألة الأقليات الأوروبية والجدل القائم بين من هم المتواطئون مع العدو ومن ساند بإخلاص القضية الوطنية.

نستشف إذاً من كتاب (الثورة الجزائرية في عامها الخامس) ،أن فانون اجمالاً تناول تطور المجتمع الجزائري بإسهاب معتمداً مهاراته في الملاحظة والتحليل ،ومن مهنته كطبيب نفسي ،فوقف مطولاً على قضية الشخصية الوطنية ومقوماتها وتاريخها وثقافتها، وكيف تمكنت الثورة من تفعيل خاصية المقاومة الراكدة فيها. مستفيداً من تواجده بداخل الثورة والمجتمع ومعايشته لكل همومهم ،آلامهم ،وأحلامهم. وما يهمنا في هذا كله ،هو "ما يظهر"، أي مدى التأثير التي لعبته الثورة الجزائرية في توجيه فكر فانون وانهماماته .وكأنه يريد تجاوز فانون (بشرة سوداء أقنعة بيضاء) .يقول محمد الميلي:"...فبعد أن كان ينكر كل دور للتقليد ولا يعترف بالماضي ولا بالتاريخ ولا بالثقافة الوطنية، أصبح يؤكد بأن الثقافة التي كانت مجمدة منذ السيطرة الأجنبية يجب أن يعاد لها الاعتبار...وتكون موضوع تفكير واستئناف وتنشيط من الداخل...وتصبح موضوع إعلان واعتزاز."[9] إذا فانون وجد في الثورة الجزائرية بيئة مناسبة لتفجير طاقاته الإبداعية ،وتمكّن من أشباع نهمه الى التحرر ،بفعل ذلك الاحساس بالإنتماء الذي قدمه له الشعب الجزائري ،حتى ولو كان من أصول افريقية ومختلف اللون ،عكس فرنسا التي همشته ومارست التمييز ضده.

بفضل هذا الانتماء الجديد لفرانز فانون أصبح شخصاً أكثر ثقةً بنفسه وبحقيقة وشرعية نضاله مع الجزائريين ،فزادت حماسته للتنظير للعمل التحرري ،ولإسماع صوته لكافة شعوب العالم الثالث التي اضطهدتها الشمولية الكولونيالية ،وعطّلت مساعي التقدم ،والتطور فيها .لكنه في سنة 1961 ،اكتشف أنه مصاب بسرطان الدم وأدرك بقرب نهاية حياته ،فأسرع في إنهاء آخر أعماله وهو كتاب 'معذبو الأرض'، الذي يعتبر وصية له لكافة الحركات التحررية في العالم الثالث وملهمهم الأول في سبيل الذود عن أوطانهم من الهيمنة الغربية.

لقد أراد فانون من مؤلفه 'معذبو الأرض'، الذي قدّم له صديقه جان بول سارتر، أن يطمر أولاً تلك الهوة بين المثقف والمستعمر ،أي تبيان طريقة الانتقال السلسل الغير مشروط من الفعل التنظيري ،الى العمل الثوري ،مستعملاً لذلك لغة عنيفة ضد المد الكولونيالي ،الذي اعتبره ورم يجب استئصاله بالقوة المفرطة ،وزواله يجب أن يكون أمراً حتمياً وضرورياً ،لاستمرار الحياة الكريمة في العالم أجمع. من بين الافكار الأساسية لهذا الكتاب ،هي اهتمام فانون بالقرى وطبقة الفلاحين ،فهو على العكس من ماركس الذي اعتبر المدن النهاية السعيدة لساكنة القرى ،يؤكد بأن المدن هي الوكر الحقيقي للمستعمر ،ومركز ازدهاره ورمز نجاحه ،فهي بؤرة الشر الكولونيالي ككل ،لذلك يراهن فانون على القرى والفلاحين في المبادرة نحو التحرر[10] ,لأن الفلاح يعاني من أجل خدمة أرضه وهي بمثابة عالمه الوحيد، وانتماءه الأزلي ،فالأرض هي

[9] محمد الميلي ،فرانز فانون والثورة الجزائرية ،مصدر سابق ،ص146

[10] فرانز فانون ،معذبو الأرض ،ترجمة :سامي الدروبي ،وجمال اتاسي ،دار القلم ،بيروت لبنان ،د ت ،ص21

رمز الكرامة والسيادة ،لذلك يعتبر فانون جمهور الفلاحين في الأرياف هم من يقومون بالدور الأبرز ويقدمون التضحيات الأكبر في المعارك ،لأن الريف في نظره كان دائماً مهملاً من طرف المستعمر ،لم يعره ذلك الاهتمام الذي قدمه أكثر للمدن ،ناسياً أن شخصية الفلاح كانت قائمة معظم الأحيان على تقديس مقوماته الثقافية والعقائدية ،وطالما كان وفياً لتقاليده وعاداته ،محافظاً بذلك على تماسكه الاجتماعي ،منغلقاً على كل تأثير استعماري، فشرارة واحدة كانت تكفي لاستثارة الريف بأكمله[11].لذلك مسؤولية الكفاح الحقيقي كانت في نظر فانون على عاتق الجماهير التي تعيش على الهامش.

كذلك ينوه فانون الى مسألة يرى بأنها ضرورية في صياغة أي نظرية أو دراسة تتناول موضوع تفكيك البنيات الكولونيالية ،وهي الفكرة القائلة بأن سبب احتلال تلك البلدان هو تخلفها وانحطاطها ،وأن الاستعمار ما هو إلا مرحلة ضرورية في تاريخها لتحقيق الرقي والتقدم وولوج عصر الحداثة ،وهذا الجدل يرفضه فانون جملة وتفصيلا ،إذ يعتبر الاستعمار أزمة انسانية ونقطة سوداء في تاريخ البشرية ،يجب أن يزول من الوجود كلياً ،وهذا الأمر لا يتحقق إلا عبر العنف، والقوة ،ووعي الثوار بأهمية خضوعهم لحزب سياسي واحد يجمعهم .يقول فانون :"...يدرك قادة الثورة أن عليهم أن ينوّروا جموع المقاتلين ،أن يعلّموها ،أن يثقّفوها ،أن يبثوا عقيدة ،يدرك قادة الثورة أن عليهم أن يخلقوا جيشاً ،أن يمركزوا السلطة .إن علينا أن نصحح التبعثر والتشتت."[12]

إذاً نستشف مرة أخرى أن التجربة الجزائرية كان لها بالغ الأثر على قلب بعض أفكار فانون الأساسية، فبعد أن كان في أعماله الأولى يرفض فكرة محاسبة الاستعمار على أفعاله في التاريخ ،محاولاً تجنب الماضي ،ها هو بعد سنوات قلائل ،يفعل عكس ذلك تماماً ،ويهجم على المستعمر وتاريخه الاجرامي ،ويفصّل بدقة كيف بنيت أوروبا وازدهرت أكثر على حساب المستضعفين وثروات بلدانهم. هذه النقطة بالذات ،أي عرض تاريخ الاستعمار ومساءلته ،كانت كما أشرنا سالفاً ،موضع نقاش حاد بين القوى التحررية والأحزاب السياسية الفرنسية سواء كانت يمينية أو يسارية ،هذه الاخير التي حاولت تبرير ماضيها الاستعماري بحجة ما يسمونه بـ' المنجزات الايجابية'[13]

توفي قِبلة الثوار والمناضلين يوم 06 ديسمبر 1961 ،عن عمر 36 سنة، بالولايات المتحدة ،قبل بضعة شهور من الاستقلال ، متأثراً بمرضه الشديد ،ودفن كما أوصى بالجزائر في بلدية"عين الكرمة"، قرب الحدود التونسية –الجزائرية ،تحت اسم 'ابراهيم فرانتز فانون'.

إذاً ما يمكن الإنتهاء اليه من عرض سيرة فانون ،والوقوف عند أهم كتاباته .هو أنه بفضل الثورة الجزائرية ،التي أمدّته بتجارب كثيرة وخبرات متنوعة ،تطور فكره ونضجت آراءه ورُسمت فلسفته ،وتغّيرت مواقفه ،فبعد أن كان متمرداً على الزنوجة ،ناقماً على ماضيها ،مركزاً

[11] المصدر نفسه ،ص5

[12] المصدر نفسه ،ص 79

[13] محمد الميلي ،فرانز فانون والثورة الجزائرية ،مصدر سابق ،ص187

على فكرة فردانية الإنسان في التصدي للاستغلال ،والتحرر من العبودية ،ومجابهة العنصرية .هذا ما سجله (بشرة سوداء أقنعة بيضاء) ،أضحى أكثر قومية ووطنية ،معترفاً بأهمية ماضي الإنسان في تغيير حاضره ،وبناء مستقبله ،وهي مرحلة الثورة الوطنية ،التي سجّلها كتاب (الثورة الجزائرية في عامها الخامس) ،إلى أن انتقلت أفكاره لمستوى الأممية ،والانفتاح على العالم ،وهو ما يميّز مؤلّفه الشهير (معذبو الأرض)[14] ،الذي يعتبر انجيلاً لحركات التحرر في النضال والكفاح.

على كلٍ فرانز فانون هو واحد من بين نخبة من المثقفين الفرنسيين ،الذين أيّدوا الثورة الجزائرية وناصروا قضيت شعبها ضد المستعمِر ،على غرار فرانسيس جونسون وجان بول سارتر. إلا أن فانون تميّز عنهم عندما لفت الأنظار بسيرته النضالية من أجل الغير والكرامة الإنسانية ،بنبذ العنصرية وأشكال الاستعباد ،ومناهضة الآخرين ،وذلك بتأصيل فلسفة التحرر والكفاح ،التي ألهمت فئة المسحوقين والمغصوبين وحفّزتهم على الثوران .إذ لم يكتفي بالتنظير للفعل التحرري داخل مكتبه ،بل سعى الى تحقيقه وتفعيله على أرض الواقع ،عندما اندمج مع الشعب الجزائري ،وانخرط مباشرة في صفوف الثورة ضد بلده السابق فرنسا.أما كتاباته ،وتجربته ضد الكولونيالية وضد الاستغلال ،كانت ولازالت محلّ اهتمام العديد من الباحثين الأكاديميين والمثقفين ،على اختلاف اهتماماتهم ،سواء كانت سياسية ،أو اجتماعية ،أو ثقافية فلسفية .وفي الأخير لحرج من القول ،بأن هذه الفلسفة التحررية لم يكن ليُكتب لها الخلود والانتشار في العالم أجمع ،لو لم تطأ قدما فانون أرض الجزائر.

[14] المصدر نفسه ،ص51